# ❁ مـــدرســـة مـــازونـــة الفقهية و آثارها خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وآثارها (قـــراءة تاريخية)

الدكتور/ محمد الأمين بلغيث

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية

- جامعة الجزائر -

**مدخل عام:**

قال ابن العربي صاحب العواصم[1] معرفًا الفقيه :والخلق على قسمين:رعاة ورعية، فالعلماء رعاة والجهال رعية والعلماء خلفاء أتاهم الله علمه ورد الخلق إليهم فيما علموا ليسألوهم فقال ﴿اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.ثم قال وهو يتحدث عن اسم الفقيه:

«لم يكن هذا الاسم من المتقدمين موضوعًا وإنما صارت خطة عند المتأخرين وضعوها في غير موضعها، وقد فَسَّرَ النبي-ﷺ- الفقه في المثل المتقدم الذي بيناه، فكل من كان له به فهو الفقيه، ومن تعدى عليه أو أصلح في وضعه في غير موضعه ووصف به غير أهله يكون ذلك كسائر التغيرات التي حدثت في الشريعة».

إن منهجنا في هذه الورقة، هو مجال التاريخ الثقافي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي وما ترتب عنه من نوازل وهموم وجدت لدى فقهاء مدينة مازونة أجوبة، وتساؤلات عن عصر التحولات الكبرى التي تعيشها منطقة هامة من العالم الإسلامي هي منطقة الغرب الإسلامي التي تعيش ظروفًا تثير الأسى بحسب الوثائق التي أرَّخَت للعصر بدقة وإحاطة بالظروف السياسية والاجتماعية للمنطقة.وكما أن تحديد حاضرة مازونة بالذات لأنها تدخل في عالم الدراسات

المونوغرافية وهي التأريخ الخاص لعالم الحاضرة، ونسيجها الاجتماعي والاقتصادي، وكيف عكست نوازل العصر حالة الجزائر الغربية من خلال فقهاء مازونة وتلمسان ووهران.

في غياب دراسات عن المدن في فضاء الدراسات الحديثة، وإقرار تفاوت مستويات الدراسات المنجزة لحد الآن حول تلمسان وقسنطينة بجاية، ومدينة الجزائر وخميس مليانة، لا يمنع من التأكيد على أن الأعمال المنجزة قد ساهمت في أكثر من مستوى، كاستغلالها المكثف لإمكانيات مصدرية متعددة الأصول، وفي معالجتها للتاريخ الجزائري جهويا ومركزيا من منطلق نظرية تنبع من واقع هذا التاريخ[2].

وبحكم ما تعلمناه من منهجية مضبوطة فإنه لا يمكن تجاوز الموروث الثقافي الذي من مادته -التي نَوَّهَ بها باحثون لهم مكانة في التأسيس للبناء التاريخي العربي الإسلامي، وهذا الموروث الثقافي من مصادره الدفينة كما عبر العلامة الفقيه محمد المنوني البحاثة المغربي- وهي كتب النوازل أو الفتاوى[3]، كتب سلاسل وطبقات العلماء والصلحاء، وكتب المناقب والكرامات، وغالبًا ما هُمِّشت هذه المصادر بحكم المنهجية الوضعية المعتمدة على الدفاتر والمراسلات الرسمية والمستندات العائلية والعقود والشواهد الأثرية وغيرها من الوثائق[4].

وقد أثارت كتب المناقب والأدبيات التقليدية بين الباحثين جدلاً لأنها لا تُرتب ضمن الوثائق والآثار الموثوق فيها، والتي تترع إلى الذاتية وبذلك تفتقد إلى المصداقية، وأخرى فاقدة لها[5].

ولكن تطويع هذه الآثار المكتوبة بعد إجراء التعديلات المنهجية الضرورية عليها، قصد استدرار مخزونها التاريخي والأنثربولوجي على السواء، لأنها تسجل ثقافة عصر،

كما تطرح كثيرًا من التساؤلات بالغة الأهمية حول الذهنية السائدة، وتحديد آراء النخب الفقهية خاصة ومواقفها من تلك الفترة من تاريخ المغرب. والشئ الظاهر أن المنقبة والرواية الشعبية الشفوية تجد أمامها محك المؤرخ، الذي بإمكانه أن يطوع هذه النصوص لكشف وتركيب الأحداث.

المدرسة الفقهية التي ظهرت إلى الوجود في مدينة مازونة بالغرب الجزائري، هي رديفة المدارس المعروفة بالجزائر، بجاية، قسنطينة بإقليم الشرق، تلمسان، مازونة وهران بإقليم الغرب.

عرف الشريف الإدريسي مازونة فقال: هي مدينة بين جبل في أسفل، ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن موفقة ولسوقها يوم معلوم وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصب. وأما الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف في الدراسات اللاتينية بليون الأفريقي فيقول عن مازونة في رحلته ومعجمه وصف إفريقيا:"مدينة أزلية بناها الأفارقة–حسب قول بعضهم– على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر، تمتد على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة، لكن دورها قبيحة فقيرة، وفيها جامع وبعض مساجد أخرى، لقد كانت مدينة متحضرة جدًّا في القديم، لكنها كثيرًا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس وتارة من قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم(القرن السادس عشر) قليلة السكان، وهم إما نساجون أو فلاحون وجميعهم تقريبًا فقراء، لأن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات، والأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة[6].

وقد أجمع الدارسون أن العصر مدار المداخلة، هو عصر الفتن والحروب بين دول المغرب الإسلامي ورثة حكم الموحدين منذ منتصف القرن السابع الهجري، وأكبر

ضحايا هذا الصراع دولة بني عبد الواد بتلمسان، حيث وقعوا بين فكي كماشة ما بين طموحات الحفصيين في تونس، والمرينيين في المغرب الأقصى، كما كان التراع السياسي على السلطة بين الأسرة العبد وادية قائمًا على أشده، وما زاد في عنف الدولة الزيانية هو صراعها الطويل مع قبائل بني توجين وتحالف هذه القبائل مع خصوم الدولة في تلمسان، كما قام الصراع العنيف في الجهة الشرقية في عهد الحفصيين، وظهرت بالجهة الشرقية حواضر ثلاثة، قسنطينة وبجاية وبونة وفي أحيان كثيرة تستقل هذه الحواضر عن الحاضرة تونس، كما عاشت الواجهة البحرية صراعا مريرًا مع الممالك الأسبانية ومملكة البرتغال مما عجل بسقوط غرناطة حاضرة الإسلام المحاصر في أقصى الجنوب الغربي الأوروبي، والصراع الدائر بين الأخوة الأعداء هو الذي عجل بسقوط غرناطة أمام غياب المتطوعة من العلماء والزهاد من أهل العدوة المغربية، وكان الريف يشهد صراعًا قبليا مريرًا مما يدل على محنة المجتمع في القرن العصيب، القرن الرابع عشر، وهو قرن سقوط وتراجع قوة المسلمين وصعود الغرب اللاتيني الكاثوليكي الصليبي الذي نقل لنا أحقاده إلى ديارنا في مطلع القرن السادس عشر.

سلطة القبيلة في عصر المازوني، سلطة قائمة، مبنية على مجموعة من المصالح، لذلك نجد في ثنايا كتابه "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"، قبائل تابعة للمخزن، تشكل قوة تسلطية قاهرة تتعسف باسم السلطة السياسية القائمة، هي عين السلطان وسيفه المسلول على من عاداه من القبائل الأخرى ورعاياه الحضر في المدن.وهي قبائل محظوظة كما تسميها بعض الدراسات بما تملك من قوة وجاه وسلطان داخل النسيج السياسي والاقتصادي والتي يزيد عدد أفرادها على 30 ألف عنصر جندهم السلطة المركزية

لحماية مصالحها وفرض الأمن ودفع الملزوم وتأديب القبائل الثائرة في عصر بايات وهران الأقوياء.

وقبائل غير عابئة بالسلطان، ومن ذلك علاقة بني عامر بباي وهران والسلطة العثمانية، وقد وصفهم صاحب الدرر المكنونة بأنهم أهل بغي وفساد، ولا يصلحون بأرض الحكم لأنهم أهل غرض وفساد، وخطاب السلطة في عصر المازوني لا يختلف عن خطاب السلطة السياسية في العصر الوسيط عامة بوصفها للمعارضة بأن أصحابها من أهل الفتنة والشقاوة، وشق عصا الطاعة في وجه الشرعية ووحدة الجماعة التي تزعم السلطة السياسية امتلاكها دون سواها من قوى المجتمع. وهذا خطاب عنيف انجر عنه إقصاء وترهيب لمن يسعى الخروج عن طاعة أولي الأمر والنهي؟

العلاقة بين القبيلة والسلطة ممثلة في باي وهران وقبائل الإقليم قائمة على القوة، لذلك نجد في ثنايا الدرر المكنونة للمازوني، ذكر لغياب السلطة وتعامل القبيلة(بني عامر خاصة) مع الأعراب الآخرين في تهديم الريف وإفساد المزروعات وتحطيم الحواضر لهذا غابت الحملات التأديبية لسلطان الجزائر نظرًا لغياب السلطة السياسية العليا عن المنطقة الواقعة بين طموحات السلطة المغربية وأعراب بني عامر وأعراب بني هلال وسليم. من أجل إخضاع القبائل المتمردة على سلطان المخزن وقوة شكيمته، والالتزام باللازمة وما يتبعها من حق السلطان على رعية خاضعة، وتحقيق شرعية السلطة في قتال المتمردين أو البغاة أو أهل الظلم والفساد عن طريق ممارسات عديدة وخطابات سياسية وفقهية، وعلاقات وطيدة مع من يحقق مصلحة استقرار النظام السياسي بكل الوسائل بما فيها استخدام الشريعة والفتوى.وفي هذا المعنى قال المازوني ويعالج مسألة القبيلة

بالغرب الجزائري وفي عصر غياب سلطة سياسية حازمة:» وسأل بعض فقهاء بلادنا وهو الفقيه أبو العباس أحمد المريض(كذا) سأل شيخه الإمام ابن عرفة عن قضية قتال بني عامر وهذا عام 796هـ/ونص السؤال على اختصار لبعض ألفاضه:»جواب سيدنا أمتع الله بكم عن مسألة وهي جماعة في مغربنا من العرب تبلغ ما بين فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف أو تزيد ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق ويأخذون حرم الإسلام أبكارًا وثيبًا قهرًا وغلبة وخلفهم، مع أن أحكام السلطان أو نائبه لا تنالهم بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم، بل إنما يداريهم بالأعطية والأنعام ببعض بلاد رعيته ونصب أعمالهم فيها وقطع نظر عمال السلطان عن النظر في جنايتها وفصل لأحكامها ثم هم مع ذلك لا نأمن الوفاق من جانبهم نصبوا الغارات على هذه البلاد التي نحن فيها وقتلوا من عاجلوه وقطعوا الطرقات وطلبوا على قطع رقاب المساكين وأخذ أموالهم وسبي حريمهم، فأمرناهم بقتالهم وصرحنا بأنه جهاد، لما قال في المدونة، فاجتمع الناس على قتالهم، فهزمهم الله وقتل منهم خلق كثير، فأنكر ذلك علينا بعض المنتمين للعلم بهذه البلاد، بل كلهم ، فاستظهرنا عليهم بنصوص أهل المذهب كنص المدونة وما في آخر جهاد "الجلاب"....الخ.هكذا كانت وضعية فقهاء العصر مع وضوح الدليل من المذهب في قتال الأعراب وقطاع الطرق.وتراجعت الزراعة وخربوا الريف، ووزادت اللازمة والضريبة بشكل مخيف وزادت الأسعار عن المعقول، وانتشر التصوف البدعي بالريف والمدينة.وهو ما سجله الفقه والنوازل في هذا العصر العصيب.

« يقول شيخ المؤرخين الدكتور أبو القاسم سعد الله ووسط هذه الصورة المضطربة للحياة السياسية كانت هناك بعض المدن تنمو بعدد سكانها وتشع بمدارسها ومساجدها

وثقافة يتغذّى منها المجتمع روحيًّا وعقليا، ومن هذه المدن نذكر تلمسان وقسنطينة وبجاية ومازونة والجزائر وعنابة وبسكرة، ففي كل مدينة من هذه المدن عائلات وجيهة عالمة اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو الزهد والتصوف.ومن هذه العائلات عائلة المقري والعقباني في تلمسان، وعائلة ابن باديس والقنفذ في قسنطينة، وعائلة المنجلاتي والمشذالي في بجاية، وعائلة ابن السكات بمدينة الجزائر، كما اشتهرت بسكرة بعلمائها أبي زيان ناصر بن مزني وعيسى بن سلامة وأبي محمد عبد الله المعروف بقصيدته في المديح النبوي[7]:

دار الحبيب أحق أن تهواها * ونحن من طرب إلى ذكراها

**أعلام مدرسة مازونة الفقهية**

لم يصلنا عن أعلام الجهة الغربية من القطر الجزائري إلا القليل من الأخبار التي لا تفي بالمطلوب، كما هو الحال مع علماء بجاية وناشر ذكرهم الغبريني في عنوان الدراية، أوكما فعل شيخ الاسلام عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية مع أعلام مدينة قسنطينة، أو أحمد البوني في منظومته المعروفة باسم"الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة".

فإذا تصفحنا طلوع سعد السعود للآغا بن عودة المزاري، فإننا لا نكاد نعرف الكثير عن أعلام المنطقة الغربية، إلا ما كتب ابن صعد في النجم الثاقب في ما للأولياء من المناقب، وروضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين(الهواري، التازي، أبركان،والغماري وابن مريم صاحب البستان، ومقارنة مع ما عرفت المنطقة من علماء في تلمسان ومعسكر وسهل الشلف وقلعة بني راشد وسهل غريس وغيرها من المناطق،

فإننا نكاد نجهل تاريخ المنطقة الثقافي، ومدرسة مازونة الفقهية تشمل شخصيات وأعلام تخرجوا في هذه المدرسة أو هم أصلا من أبناء هذه الحاضرة.

**أبرز أعلام هذه المدرسة الفقهية**

أبو زكرياء يحي بن موسى (أبي عمران) ابن عيسى بن يحي أبو زكريا المغيلي المازوني وهو فقيه مالكي من أهل مازونة من أعمال وهران، ولي قضاء بلده، توفي بتلمسان سنة 883هـ/1478م.له الدرر المكنونة في نوازل مازونة وهي فتاوى ضخمة في ديوانين في فتاوى معاصريه من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم ومنه استمد الونشريسي مع نوازل البرزلي وغيرها.

أخذ المازوني العلم عن ابن مرزوق الحفيد، وقاسم العقباني، وأبي العباس ابن زاغو المغراوي[8]، ومحمد بن العباس. قال عنه أحمد بن يحي الونشريسي صاحب المعيار:»الصدر الأوحد العلامة العلم الفضال ذي الخلال السنية، سني الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا، ومولانا وبركة بلادنا أبي زكريا سيدي يحي.وهو من العلماء الكبار الذين تناولوا الفتوى، وأصبحوا مرجعية فقهية، ولم يتوظف بعلمه عند السلطة.وكانت فتاوى المعيار والمازوني دائرة على فقه مالك بن أنس، لأنه المذهب الذي كان يتبعه جميع السكان باستثناء أتباع المذهب الإباضي[9].

وهكذا أصبح العلماء والقضاة، حسب نوازل المازوني، هم الذين يقومون بالسهر على تنفيذ القانون، وأنّى لهم ذلك في مجتمع يسوده الفساد والاضطراب[10].

وعرفت مازونة بعدد من الفقهاء أمثال موسى بن عيسى صاحب "ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، و"حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه"وهي من المجاميع الفقهية الكبيرة المفقودة، وابنه يحي صاحب الدرر المكنونة في

النوازل المذكور أعلاه، أما مدينة الجزائر، فقد اشتهرت بزاهدها وعالمها عبد الرحمن الثعالبي، وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (ت.884هـ) صاحب اللامية المشهورة في العقائد التي شرحها الشيخ السنوسي(865هـ)، كما اشتهرت وهران بالعالمين المتصوفين محمد الهواري وتلميذه إبراهم التازي وأبي العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني(920هـ/1514هم) صاحب الفتوى الشهيرة إلى الموريسكيين من أهلنا بالأندلس و"جامع جوامع الاختصار في والبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان" في تربية الأولاد وتعليمهم وولده أبي عبد الله محمد بن أحمد المغراوي الوهراني المعروف بشقرون الوهراني، صاحب "الجيش الكمين لقتال من كفر عامة المسلمين" وصاحب منظومة في القراءات التي نظمها حسب المحقق البوعبدلي عام 899هـ.

المازوني:أبو زكريا يحي بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني(ت.883هـ/1478م). صاحب الدُّرَر المكنونة في نوازل مازونة المتكون من ديوانين كبيرين من حوالي 706 ورقة(الديوان الأول:516 ورقة، والثاني 190 ورقة) موجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة مع ضياع الورقة 194 و195 وجه وظهر إلا أن الميكروفيلم المصغر قد حفظ لنا الديوان كاملا.بلغني تحقيقها من طرف الباحث مختار حساني من جامعة الجزائر،من مدة طويلة إلا أنها لم تعرف النور إلى كتابة هذه السطور، ونبهنا إلى أهميتها الباحث الفرنسي جاك بيرك في دراسته القيمة حول توبة الأعراب، كما كان يشيد بأهميتها الأستاذ مولاي بلحميسي، في دروسه كلما استفز فينا روح الجد والاجتهاد للقيام بنسخها وتحقيقها.

وأفادني المازوني في معالجة اهتمامات فقهاء الإسلام في مسألة العلاقات الإسلامية مع دول الغرب أيام الطرطوشي منذ فتواه الشهيرة حول تحريم الكاغد والجبن الرومي

واعتبر سلعهم نجسة، وهي تدخل ضمن القضايا السياسية والثقافية التي عرفها الغرب الإسلامي منذ عصر المرابطين، قال المازوني وسئل الإمام الحافظ سيدي أبو عبد الله بن مرزوق وقيل له جواب سيدنا في الكاغذ الرومي هل يجوز استعماله والنسخ فيه أم لا؟ لأن بعض الناس قال: «إنه نجس لأنهم يعملون بأيديهم المبلولة النجسة على مقتضى المدونة ومقتضى القياس على ما نسجوه»فقال ما لاح لي فيها بمقتضى نصوص المالكية، إن لم يكن متفقا على طهارته عندهم فعلى الأقل من أن يكون مختلفًا فيه...(هكذا). كما سجل المازوني انحراف المرابطين أصحاب الزوايا والرباطات القائمة في ريف الغرب الإسلامي، مع تشدده مع أعراب بني عامر وأعراب بني هلال وسليم ودعا إلى قتالهم لأنهم أشد على المسلمين من المشركين، وهو بذلك لا يخرج عن دائرة المذهب في موقفه من أهل الفتنة وقطاع الطريق ومثيري الشغب في وجه الحجيج والسابلة وكل مواطني الدولة الإسلامية من المسلمين وغيرهم. كما عالج المازوني بنقله لفتاوى الطرطوشي حول تجديد كنائس النصارى بتونس، والأندلس، وهي ظاهرة تطرق لها فقهاء العصر كابن الحاج، وابن رشد الجد، وابن سهل، وتشددوا في عدم السماح لهم بتجديدها، وخالفهم في هذه الفتوى ابن الحاج الذي أبدى تسامحًا كبيرًا أشرنا إليه في محله في دراسة ساقة لنا، وتجددت القضية كما هو معروف مع علماء العصر وكيف كانت فتوى ابن زكري والشيخ السنوسي هي دعامة عبد الكريم المغيلي في تهديم كنيس اليهود بتمنطيط رغم معارضة فقهاء فاس وفقيه توات العصنوني[13].

لقد استمد أبو زكريا يحي المازوني نوازله وأحكامه من مهذب والده، كما استمد من المهذب جل من اعتنى بنوازل العصر، والمهذب مادة مصدرية في الوثائق والأحكام،

وعلى الرغم من هذه المكانة العليا فلا يزال مغمورًا لا يعرف الكثير من الباحثين المهتين بالنوازل وكتب الأحكام والفقه والتاريخ عنه إلا قليلاً[14].

وأبرز المازوني مكانة العلماء في المجتمع الإسلامي مشيرًا إلى أهم صلاح الأمة بعد صلاح الحكام، كما عالج المازوني مواقف علماء السلف من الفرق العقدية كالمعتزلة والخوارج والأشاعرة، كما تطرق إلى البدعة والبدع في العقيدة والسلوك ومواقف العلماء منها كالسبحة والميزان وضرب خط الرمل، وإنكار علماء عصر المرابطين على الغزالي إباحته لبعض هذه المستحدثات في حياة المسلمين وعلى رأس المستنكرين -كما سجل المازوني في نوازله- ابن العربي المعافري[15].لقد ترك العصر بصماته على شخصية الفقيه النوازلي المازوني مما أفادنا فائدة كبيرة عن حالة الريف والمدينة بما فيها أقاليم أخرى في شرق البلاد، كبجاية وريف الصومام، مبرزًا عادات وتقاليد العلماء والرعية والمتصوفة والمرابطين الذين انحرفوا عن رسالة المتصوفة فقد سجل عليهم انحرافهم عن الشرع وأحكامه.وأورد في هذا فتوى عبد الرحمن الوغليسي، الذي سئل عن مرابطين يتقدمون على أصحابهم فيحددون ما يجب عليهم من الزكاة أو قطيع الأرض للرجل المذكور أو شبهه إما ثلاثين ذهبًا أو أربعين أو أقل أو أكثر ويترك لهم...فهل تجوز لهم التمسك بذلك، أجاب الوغليسي بعدم الجواز لأجل الفقه والجاه، والضعفاء والمرضى أولى بزكاة هؤلاء[16].

لقد كان لعلماء مازونة الدور الكبير في المحافظة على تماسك المجتمع ووحدته في مواجهة أهل الزيف والانحراف، وقد عاصر وتتلمذ عليه كبار فقهاء القرن العاشر الهجري من أمثال العلامة أحمد بن يحي الونشريسي صاحب المعيار الذي ترك سيرة حسنة وعلمًا ينتفع به إلى اليوم.

**مدرسة مازونة العلمية**

أسس الفقيه العارف محمد بن علي الشارف المازوني مدرسة تربوية بمازونة في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وقام بالتدريس فيها إلى أن لقي ربه، ثم تجدد ازدهار المدرسة على يد الشيخ أبو طالب محمد بن علي، في بداية القرن الثاني عشر الهجري، وخلفه على المدرسة أخوان من أبرز تلامذة المدرسة هما: الشيخ محمد بن هني وشقيقه الشيخ عبد الرحمن بن هني[17].

أما أشهر طلبة هذه المدرسة فهو الفقيه العالم محمد أبوراس الناصر المعسكري المولود عام 1150هـ/1737م بقلعة بني راشد قرب معسكر، استوعب علوم عصره وكان من طلبة مازونة النجباء، توفي عام 1238هـ/17 أبريل 1823م.ترك ثروة فقهية وعلمية كبيرة وسلسلة طويلة البعض مفقود والبعض مخطوط، فقد خلف وراءه مائة وستة وثلاثين مخطوطة بين قصيرة وطويلة، ولم يطبع منها إلا اثنان[18]. الأول: فتح الإله ومنته في التحث بفضل ربي ونعمته أو حياة أبي راس الذاتية والعلمية، نشره محمد بن عبد الكريم الجزائري رحمه الله بالجزائر عام 1990م والسيرة في حوالي 185 صفحة من الحجم الكبير، وهي سيرة مميزة تدخل في باب السيرة العلمية، وهي تجربة غنية صادقة عن حواضر وأعلام الجزائر في عصر أبي راس الناصر المعسكري، وهو الذي عاصر قرني المصاعب والكوارث خلال القرنين الثامن عشر وعقدين من القرن التاسع عشر، والكتاب الثاني/عجائب الأسفار وقد طبع مترجمًا إلى الفرنسية من طرف السيد أرنو.نشر كاملا عام 1885م.، بعد أن نشره على حلقات في المجلة الإفريقية.

ومما يبرهن عن أهمية مدرسة مازونة الفقهية ما جاء على لسان أبي راس الناصر قال سألني الشيخ محمد بن لبنة عن وجهتي، فقلت له ذاهب إلى مازونة، قال لما؟ قلت:

لقراءة الفقه، فقال: والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاصه وما يتعلق به، فحفظت في مازونة مختصر خليل وفهمته معنى ولفظًا في عامي الأول، ثم قرأت للطلبة الفرائض، وتتلمذ على الشيخ العلامة الناصح محمد بن القندوز المستغانمي[19]، الذي تتلمذ عليه محمد بن علي السنوسي المستغانمي بعد أن حفظ قدرًا من الكتاب والفقه على يد كفيلته العالمة الفاضلة عمته فاطمة في بوقيرات، وكان هذا العالم الفذ سيدي محمد بن القندوز قوالا للحق فقتله الباي حسن، مما أدى إلى هجرة السيد السنوسي الكبير الفقيه مجدد سيرة محمد بن عبد الوهاب بالغرب، في ليبيا والجزائر وتشاد والصحراء الكبرى.

وممن درس وتخرج في مدرسة مازونة الشيخ عدة بن غلام الله مجدد الطريقة الشاذلية ومؤسس الزاوية في جبل محنون بضواحي تيارت، منهم محمد بن العالم قاضي منطقة بركان، والمأمون بن العالم باش عدل وجدة، بالمغرب الأقصى.

أبو راس الناصر شخصية علمية محترمة صال وجال مشرقًا ومغربًا، ومحمد أبو راس الراشدي المعسكري(1165-1238هـ/1751-1823م) وما يعنينا أنه ممن اتهم بانتمائه إلى ثورة درقاوة على السلطة العثمانية عام 1217هـ/1802م وهو من وجهاء وأعيان الجزائر في عصره وقد كتب(درء الشقاوة في حروب درقاوة) وهي الحروب التي عرفت أيام ولاية مصطفى باشا على الجزائر.وأشار إلى ثورة درقاوة، وهي ثورة عنيفة كادت تعصف بالسلطة العثمانية، وقد تكون الثورة بإيعاز من سلاطين المغرب، وقد ألف فيها أبو راس كتابًا هو في حكم المفقود[20].

إن الاختلاف الواقع بين الباحثين حول مصطلح مدرسة، يرجع بالضرورة إلى المناهج المعتمدة في فهم ما يمكن أن نعرف من المصطلح، وقد اتفق أهل الفقه مثلا أن

المدرسة المالكية تتكون من الشيوخ والعلماء والفقهاء الذين كونوا الميراث الفقهي للمذهب المالكي وهم مدرسة الأثر من الصحابة من عمر وابنه وعلماء المدينة السبعة من التابعين إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت.179هـ)، ثم المدرسة المصرية عبد الرحمن بن القاسم وأضرابه ومن أخذ عنه أقاويل مالك بن أنس إلى تأسيس المرجعية الفقهية الممثلة في المدونة.

المدرسة المغربية ممثلة في أسد بن الفرات وعلي بن زياد وابن حبيب وغيرهم من علماء إفريقية والأندلس، وهؤلاء جميعًا، يمثلون مصادر المالكية ومرجعيتهم الفقهية مع ما تميز به كل تيار وبلد في نقلهم وشرحم واجتهاداتهم داخل مصادر المالكية عامة[21].

لقد كانت مازونة مدرسة وحاضرة فقهية، ولا نعدم البحث في تراث هذه الحاضرة التي كانت في يوم ما عاصمة بايلك الغرب الجزائري فنعثر على مصادر دفينة تمكننا من سد فجوات كبيرة في ميراثنا الفقهي خاصة والعلمي عامة.

## الهوامش

1- أبو بكر محمد بن العربي المعافري، سراج المريدين، الجزء الثاني، رصيد المكتبة الوطنية بباريس، ورقة:26 وجه.

2- لقد أصبحت العناية بالفتاوى ومسائل العلماء مادة مصدرية ثرية لإعادة تركيب الحدث التاريخي وقد نبه إلى هذه الأهمية غالبية من درس هذا الموضوع وتمكن باحثون من الاستفادة من الفتاوى في دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمذهبية في الغرب الإسلامي انظر على سبيل المثال:

***J.Berque;Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XV^e siècle d'après un manuscrit jurisprudentiel (Annales E.S.C) sept-oct 1970.P:1325-1353. J.Berque; En lisant les Nawazil Mazouna (Studia Islamica)Paris 1970PP:31-39. Berque(J):AL Youssi, problème de la culture marocaine au XVIIè siècle, paris, Mouton, 1958.***

محمد المختار ولد السعد، الفتاوى الفقهية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الموريتاني، الكراسات التونسية(مجلة العلوم الإنسانية)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، المجلد(XLIX) العدد 175، الثلاثية الرابعة لسنة 1996م.ص:11-61.د.كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي.الأسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب 1997م.ص :79.

3- لطفي عيسى، أخبار المناقب في المعجزة والكرامة، تقديم علي اللواتي، تونس، سراس للنشر، 1993م.ص:6. لطفي عيسى، مدخل لدراسة مُميزات الذهنية المغاربية خلال القرن السابع عشر،تونس، سراس للنشر ، 1994م.ص:17 وما بعدها.د.إبراهيم القادري بوتشيش، واقع الأزمة والخطاب" الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات(دراسة تطبيقية على الأزمة الموحدية في أواخر القرن السادس الهجري وبداية السابع(تاريخ الغرب الإسلامي، قراءاتٌ جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة)، بيروت، دار الطليعة، 1994م. ص:106-122. د.إبراهيم القادري بوتشيش، دور المصادر "الدفينة" في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية(دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التأسيس إلى أواخر عصر الموحدين(تاريخ الغرب الإسلامي)، مرجع سابق، ص ص:123-141.

***Sami Bargaoui ; L'hagiographe et l'historien :les pièges de l'écriture ;à propos de la publication de l'ouvrage d'Al-mountasir B.al-mourabit B.Abi Lihya alGafsi, Nour al-Armash fi Manaqib al-qashshash,étude et établissement du téxte par Hassine Boujarra et lotfi Aissa; Librairie al-Atika, Tunis, 1998 P:585.in-Correspondances (Institut de Recherche sur le Maghreb Contemporain N° 57 juillet -août-septembre Tunis 1999 p:3 et suivantes.***

4- من أهم الدراسات المنجزة في هذا المجال، انظر: د.مصطفى أحمد بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1999م.(320صفحة).

فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن 13هـ/18-19م، دكتوراه الدولة، جامعة تونس الأولى، سنة 1999م.618 صفحة(دراسة خطية).

**5-** ***Magali Morsy, Les Ahnsala examen du rôle historique d'une famille maraboutique de l'atlas marocain, Préface maxime Rodinson, Paris, Mouton 1972.p:5 et suivantes.***

لطفي عيسى، أخبار المناقب، ص:6.من تقديم الأستاذ علي اللواتي.

انظر أيضًا عن علاقة الزاوية والولي بالسلطة:

*Yassine Karamti, La ville, les saints et le « Sultan » étude sur le changement social dans la Région de Nefta(Tunisie)aux XIX et XX siècles, Librairie al-Atika,Tunis , 1998 P:585.in-Correspondances (Institut de Recherche sur le Maghreb Contemporain N° 56 -Mai-Juin-1999 Tunis, p:3 et suivantes.*

6- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، القسم الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م.ط.2.ص:36.

7- د.سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(45/1).

8- ابن زاغو: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني، الإمام المحقق المتفنن العابد، له شرح على التلمسانية في الفرائض وله فتاوى في المعيار، والدرر المكنونة توفي سنة 845هـ/ نيل الابتهاج، ص118.الفكر السامي للحجوي، الجزء الثاني ص/257.محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب العربي، ص:254. ترجمة رقم:921.

9- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(392/1).

10- نفسه، 43/1.

11- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام،الجزء الثاني،بيروت، دار الثقافة، 1980م.ط.4.ص:237.

12- وقع خلط كبير في تواريخ وفاة أحمد بن أبي جمعة المغراوي، صاحب الفتوى الشهيرة لموريسكيي الأندلس، وكتاب"جامع جوامع الاختصار) واقترح رابح بونار وجلول البدوي أن الوفاة كانت عام 920هـ/1514م)، كما وهم البعض في مؤلفات الإبن شقرون الوهراني صاحب الجيش الكمين ومنظومة في القراءات، فجعل الباحث يوسف عدار وفاته عام 929هـ / وهذا أيضًا مما يدعو إلى الحيرة هل توفي الأبن شقورن لتسع سنوات بعد وفاة الوالد؟ انظر :أحمد ابن أبي جمعة المغراوي(ت.920هـ/1514م)، جامع جوامع الاختصار والبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان، تحقيق تعليق أحمد جلول الدوي ورابح بونار، الجزائر، ذخائر المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975م.ص:6. يوسف عدار، أصول أحكام النظر والتقليد عند علماء المغرب الإسلامي في القرون التاسع والعاشر والحدي عشر، مع تحقيق(الجيش الكمين لشقرون الوهراني)، رسالة ماجستير إشراف/أ.د.عمَّار جيدل، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 1419هـ/1999م.ص:341.د.محمد الأمين بلغيث، شذرات من تاريخ مدينة البليدة القافي، ص:68.

قال المهدي البوعبدلي أن نظم منظومة التقريب وهي في 302 بيت عام 899هـ. المهدي البوعبدلي، اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث، كتاب الأصالة(محاضرات ومناقشات ملتقى الفكر الإسلام الخامس عشر(ملتقى القرآن الكريم، من 2 للى 8 ذو القعدة، 1401هـ/1-7 لاسبتمبر 1981.) الجزء الأول، قنطينة، الجزائر، مطبعة البعث.ص:151.

13- محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمسان(909هـ/1503م) مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تقديم وتحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر، سلسلة ذخائر المغرب العربي، الركة الوطنية للنشر والتوزيع، أكتوبر 1968م.ص:15.

14- د.بوبة مجاني، كتب النوازل والأحكام مصدر للتاريخ الاجتماعي، العصر الزياني نموذجًا(التغيرات الاجتماعة في البلدان المغاربية عبر العصور (أعمال ملتقى دولي في التاريخ) 23-24 نيسان- أفريل سنة 2001م.

قسنطينة منشورات مخبر الدرااات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة،الجزائر، 2002م.ص:148.

15- د.محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد الثاني، أطروحة دكتوراه الدولة مخطوطة، إشراف أ.د.عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 1423-1424هـ/2002-2003م.ص:6-7.

16- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى،1999م.ص: 20.

المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، السفر الأول، رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، ورقة:153 وجه.

17- د. بوعبد الله غلام الله، نظرة عامة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن العشرين (أعمال الأسبوع الوطني الثالث للقرآن الكريم) الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف 1424هـ/2003م.ص:37.

18- راجع مؤلفات أبي راس الناصر/ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995م.ص:234-244.محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته(حياة أبي راس الذاتية والعلمية) حققه وضبطه محمد بن عبد الكريم الجزائري، تقديم د.أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م.ص:21.

19- أبو راس الناصر، فتح الإله(سيرة أبي راس)ص:20-21.

20- انظر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع ، ص:569 وما بعدها.محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته،(مقدمة الدكتور أبو القاسم سعد الله).د أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، ص:222.د.محمد الأمين بلغيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني، مؤرخ سوف والطريقة الشابية، الجزائر، مارس 2002م.ص:76.

21- انظر المدرسة الأندلسية. د.محمد الأمين بلغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، المجلد الأول، ص:107وما بعدها.